

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم يوسى مذكور

خطت الدراسات الاجتماعية في الحسب سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فانتجت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشتتت مناحيها ، واستطاعت أن تثبت أن لها - كسائر العلوم - موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادئ ثابتة ، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره في مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين . فان مجلة ما كتبه أفلاطون وأرسطو في المصور القديمة ، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا في القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علمية ناجحة (١) . ولا تنكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولقت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدأ أثره الواضح في القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات موتيسكييه وفولتير وروسو (٢) . ثم جاءت الثورة الفرنسية التي قلبت النظم المألوفة رأساً على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة الشقية طرقاً مستحدثة ، فانتجت بهذا ثورة أخرى في الأفكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت (٣) . بيد أن تكوين علم الاجتماع في شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فدرسة ميل وسبنسر في إنجلترا ، وفونت وفيجر في ألمانيا ، ودركيم وليشى بريل في فرنسا ، وأعمال السامحين والرحالة من إنجلترا وأمريكا وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة ، بل خلقته من عدم (٤)

لم تقف هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف في بحثها عند حد . فلجأ بعضها إلى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها ، وإحساساتها ، وعقائدها . واتخذ بعضها من الأحصاء

والتعداد وسيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها . وأبت طائفة أخرى إلا أن تصمد بالاجتماع إلى مستوى العلوم الواقعية sciences positives فينته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة . لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب المهيمنة المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك إلى نتائج سارة وشيقة للغاية (٥) . ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبوا في خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

بضيق بنا المقام عن أن ترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعة جلاسجو ، وأستاذ الاجتماع في ليثربول وكمبرج ، وأحد رجال القانون والحمامة في لندن (٦) . نشأ هذا العالم متشعباً - ككل أتباع ميل وسبنسر - بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، ولا سيما الممجى منها . فعلى ضوء هذه الدراسة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التي مرت بها فكرة من أفكار الجمعية ، وأن نقف على منشأ هذه الفكرة وكيفية تطورها . وقد تخصص فريزر في هذا النوع من البحث ، وتناول من نواح شتى في أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وحمق كبير ؛ لهذا بمد اليوم - في حق - من أكبر العلماء البرزين في خصائص الشعوب ethnographes (٧) ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات في رسومها وطقوسها لدى الشعوب القديمة والحديثة ؛ وله في ذلك مؤلفات عديدة أهمها : التوتيمس Totemism ، والفضن الذهبي The golden Bough ذلك الكتاب العظيم الذي ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والابطالية (٨) . وغني عن البيان أن أبحاثاً كهذه تتصل اتصالاً وثيقاً بالخرافة التي لبست ثوب الدين في كثير من الجماعات الانسانية

نستطيع أن نقول - دون أن نخشى أية معارضة - إن

(1) Hubert, *Sociologie*, 130 — 35.

(2) *Ensy. Brit.*, t. IX. — *Larousse*, XXes., t. 3.

(3) *Ensy. Italiana*, t. XVI. pp. 44 — 45.

(4) *Der grosse Brockhaus*, VI, 554.

(1) Hubert, *Les sciences sociales*.

(2) *Id. Sociologie*, p. 6,

(3) Maunier (R.), *Introd. à la Sociologie*, pp. 91 — 99.

(4) Külpe, *Einleitung in die philosophie*, 136 — 39.

وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدى قلوب الأبناء والأعقاب ؛ صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن في مقدورنا أن نقدسها اليك في صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لاندعى أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا اللبيب الأزرق والغاز الخائق ، وإنما نحاول فقط أن نكون ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصوم شبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية . قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو أغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفي بعض مراحل التاريخ ^(١) »

نخبر فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها ، وهي الحكومة ، والملكية الشخصية ، الزواج ، واحترام الحياة الانسانية ؛ وبذل غاية الجهد في إثبات أن الخرافة ساعدت على تكوينها ودعمها مستميناً في كل ذلك بالواقع والتاريخ . فلاحظ في دقة أن مهمة الحكومة ذلت لدى كثير من القبائل الممجبة المعاصرة بسبب الرأي القائل إن الحكام ينتسبون إلى طبقات سامية ، وينمون بسلطان سحري خارق للعادة ؛ وإذا كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء أية ملاحظة . فلدى سكان جزائر السود Mélanésie في أفريقية يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من اللائكة والجن المتصلة بهم اتصالاً وثيقاً . وفي هذا سر نفوذهم ؛ فتمى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه ^(٢) . ويستفدون كذلك أن الحاكم أو الوالي يستمر بعد موته في سهره على رعاياه ، ويماقبهم بالجذب والفرق والسواعق إن أخطأوا ولم يقدموا القرابين لجدته ^(٣) . ويعتبر الرؤساء السياسيون في زيلنده الجديدة كآلهة أحياء مقدسة في مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع إلى عينيه فاقلمهما وابتلمهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ؛ ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين

فريزر أنصحى أستاذاً غير منازع في موضوع الخرافة ؛ درسه في رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع فيه مجالاً لن جاء بعده . لم يمن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وسكوك النقران وما أشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب ^(٤) . وبالجملة ليس تحت كتاب من كتبه إلا وفيه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع . ولئن كان قد أعلن إعلاناً كافياً عن مضار الخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نعمها وحسناتها ؛ ولا ريب في أنه أول اجتماعي أبان في وضوح أثر الخرافة الصالح في الجماعات الانسانية . وقد وضع في هذا - فضلاً عن أبحاث جزئية مختلفة - كتاباً مستقلاً سماه : عماى الشيطان . L'avocat du diable ^(٥) . ولهذا الكتاب من اسمه نصيب كبير ؛ فإن مؤلفه يبدو فيه المحامى المدبر الذي يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين ما لها من يد في تكوين بعض الأسس الاجتماعية . فرجل الدفاع في محام كمن لندن يزج بنفسه في محكمة الآراء والنظريات لينصر فكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأي السائد ، ويخرج على المؤلف المسلم به . غير أنه قد وفق إلى حد كبير فيما حوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحي الخير . وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون إلى اعتبار الخرافة خطأ في ذاتها ، وشرراً لا خير فيه ، وضرراً محقق النتائج . وفي الحق أنها أصل كثير من آلام هذا العالم ، فقد بددت ذخائر هائلة ، وضحت بأرواح لاحصر لها ، وأثارت حروباً شعواء ، وأوقعت الشحنة بين الأصدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منها ، وملأت السجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجئ بالعجزة والمعتمدين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوساً مطمئنة . ولما لم تقنع بإبداء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ،

(1) Voir, *The magic art and the evolution of kings*, 1911.

(1) Frazer, *L' avocat du diable*, 1 — 2.

(2) Codrington, *The Melanesians*, 46.

(3) Frazer, *op. cit.*, 9.

(٢) نأسف لأننا لم نجد بين أيدينا أثناء كتابة هذه الكلمة النسخة الأصلية الانجليزية لهذا الكتاب لتعيل عليها ؛ ولا نفوتنا أن نلاحظ أن ترجمته الفرنسية في متنى الجريدة

المرضى لشفايتهم^(١)
هذه الأمثلة القليلة تكني للبرهنة على أن عدداً من القبائل
والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى
موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم
والتماق بأهدابهم ، وإذا فقدت ساعدت الخرافة ، في بعض الشعوب
وفي بعض الأزمنة ، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ؛
وفي هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمي بوجه عام

إبراهيم يرمي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

(1) Ibid, 144.

وزارة المعارف العمومية

إعلان مسابقة

عن الحاجة إلى كتاب في المطالعة

للمدارس الابتدائية

تعين الوزارة عن حاجتها إلى كتاب في المطالعة العربية
لكل سنة من السنوات الأربع بالمدارس الابتدائية للبنين
والبنات ، يستأنس في وضعه بالمنهج المتبع في هذه المدارس ،
وأخيراً لتقديم الكتب للوزارة هو ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ،
والكتب التي يقع عليها الاختيار ستقررها الوزارة ابتداء من
سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ ، وتشتري حق تأليفها وفقاً للقرار
الوزاري رقم ٣٧٥١ الذي يمكن طلبه من إدارة مخازن الوزارة
أو الاطلاع عليه بها

والكتاب الذي تقرره الوزارة لمدارسها وتشتري حق
تأليفه بعد أن تعدله لجنة الفحص تعديلاً ذا شأن ، سيخصم
من مبلغ شراء حق تأليفه (المشار إليه بالقرار الوزاري)
عشرون في المائة تمنحها الوزارة مكافأة للجنة على عملها ،
أما الكتاب الذي يقرر بغير تعديل أو بتعديل غير ذي شأن ،
فلا تمنح اللجنة مكافأة عنه

وهذه المسابقة لا تلزم الوزارة بشيء ما قبل الموظفين ،
وهي تعتبر معدلة للاعلان السابق نشره متضمناً الحاجة إلى
كتاب للسنة الثالثة وحدها ٣

المضوين^(١) ويقول بعض الأمراء الزيلنديين : « لا تظن أني
رجل وأني من هذا العالم الأرضي ، كلا فاني نزلت من السماء
حيث يسكن أبائي الآلهة ، وسأعود إليهم يوماً^(٢) » . ويروون
أنه بينما زيلندية تنذوق خوخة جميلة انزعجت من سلة تحملها ،
علت أنها نبتت في مكان مقدس ، فأسقطت في يديها وصاحت بالويل
والثبور وأنها لا بد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان
المقدس ؛ وما أصبح الصباح إلا وقبضت روحها^(٣) . ويعتقد
سكان أفرقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم
يتصرفون فيها كما يشاءون . وفي مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا
الشمس ويحسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ؛ لذلك ياجأ
الأهلون إليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض^(٤)
لم يقف أمر هذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية
الموجودة في أفرقية وأستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل
الشعوب النحضرة القديمة . فقديما المصريين كانوا يقدسون
ملوكهم ويعصون بهم إلى أصل ساوي ، وإذا نقصت حاصلاتهم
أرجعوا ذلك إلى غضب الملك عليهم^(٥) . وفي قوانين مانو الهندية
كتبت العبارة الآتية : « إن الملك بفضل سره الخارق للمادة ،
نار وهواء ، وشمس وقمر^(٦) » . وكان اليونان في عهد هوميرو
يعدون ملوكهم ورؤسائهم آلهة أو كآلهة^(٧) . وما لنا نذهب
بيدأ وفي التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد
كان طامة الانجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب ، فإذا لمس
الملك صريخهم برى لساعته ، واستمرت هذه الخرافة إلى
أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يمالج روبرت الصالح ،
وأدوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة^(٨) . وزى في فرنسا
شيئاً من ذلك في فجر الثورة وبمدها بمشرات السنين ؛ فان لويس
الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لسوا آلاف

(1) Taylor, *New-Zealand and its inhabitants*, 134,352.

(2) Thomson, *The Story of New-Zealand*, I, 95.

(3) Brown, *New-Zealand*, 76.

(4) Frazer, *The magic art*, I, 342.

(5) *Ibid*, I, 418— Tiele, *History of the Egyptian religion*
103.

(6) *The Laws of Manu*, VIII, 5 — 8.

(7) Homère, *Odysseé*, II, 235.

(8) Crawford, *The King's Evil*, 11.